البراغماتية

أولا : تعريف البراغماتية (Pragmatism)

البراغماتية لفظ مشتق من الكلمة اليونانية (Pragma) وتعني العمل ، ويؤخذ منها كلمة (عملي) ، وقد عرفها قاموس ويبستر العالمي بانها (تيار فلسفي أنشأه تشارلز بيرس و وليام جيمس يدعو الى حقيقة ان كل المفاهيم لا تثبت الا بالتجربة العملية) وعرفها المعجم الفلسفي بانها (مذهب يرى ان معيار الصدق للآراء والافكار انما في قيمة عواقبها عملا ، وان المعرفة اداة لخدمة مطالب الحياة ، وان صدق قضية ما هو كونها مفيدة) والبراجماتي بوجه عام وصف لكل من يهدف الى النجاح أو الى منفعة خاصة .

اذا كان تشارلز بيرس هو اول من استخدم مفهوم البراغماتية فان تطويره كان على يد الفيلسوف الامريكي وليم جيمس ومن ثم جون ديوي ، وهم وان اتفقوا في الاصول فان لكل واحد منهم ما يميزه في نظرته الى الفلسفة البراغماتية .

وصف جون ديوي البراجماتية بانها فلسفة معاكسة للفلسفة القديمة التي تبدأ بالتصورات ، وبقدر هذه التصورات تكون النتائج ، أما البراغماتية فهي تدع الواقع يفرض على البشر معنى الحقيقة ، وليس هناك حقيقة ابتدائية تفرض نفسها على الواقع ، وقد يطلق عليها (أداتية) إذ يذكر بان المعرفة أداة للعمل ووسيلة للتجربة ٠

والفلسفة البراغماتية هي فلسفة تصور العصر العلمي الذي نعيشه اليوم بصفة عامة ، وتصور الحياة العملية التي يعيشها الأمريكيون في مدنيتهم الصناعية بصفة خاصة ٠

انطلق بيرس في مذهبه الفلسفي من أن أي فكرة لا يمكن التأكد من وضوحها إلا من خلال النظر الى الآثار والنتائج العملية التي تحققها في الواقع سواء كانت هذه النتائج مباشرة أو غير مباشرة ٠

لم يكن بيرس يتوقع النجاح الكبير الذي سيلاقيه هذا المذهب الفلسفي الجديد الذي عبر عنه ، إذ ظل هذا المذهب زهاء عشرين عاما مهملا ، حتى أيقضه الفيلسوف الامريكي وليم جيمس من سباته وأضاف عليه ونشره على الناس في مؤلفاته حتى اصبحت البراغماتية لفظ تتردد في الاوساط الثقافية في كل مكان في العالم ، واصبح مذهب تشارلز بيرس وما ادخل عليه وليم جيمس وما طوره جون ديوي من اشهر الحركات الفلسفية في هذا العصر ٠

ثانيا : ابرز رموز البراغماتية :-

١- تشارلز بيرس (١٨٢٩-١٩١٤)

ولد تشارلز بيرس Charles Senders Peirce في كمبرج من ولاية شوستس في عام ١٨٣٩ وهو الابن الثاني لبنجامين بيرس أستاذ الرياضيات وعلم الفلك في جامعة هارفارد ، وكان أول فيلسوف أمريكي يخرج على العالم بفكر جديد يبلور الحياة العقلية كما تمثلت في القارة الجديدة وتوفي عام ١٩١٤ ٠

في عام ١٨٧٨ نشر بيرس مقالة بعنوان (كيف نجعل أفكارنا واضحة) أشار فيها الى أن العقائد هي التي تحدد السلوك ، وأننا لنتأكد من وضوح أي فكرة علينا النظر الى الآثار والنتائج العملية التي تحققها في الواقع ، سواء كانت هذه النتائج مباشرة ام غير مباشرة ،لقد أوجز بيرس فلسفته بقوله (أن فلسفتي يمكن وصفها بأنها محاولة مخالفة لطرائق الميتافيزيقيين في الاستنباط ، الذين يقيمون على فروض من عندهم ويصلون الى براهين يصفونها بالصواب القطعي الذي لا يتعرض للتعديل على ضوء ما قد تكتشف عنه البحوث العلمية فيما بعد ، بل طريقتي هي طريقة العلم نفسها وهي أن أقدم صورة للكون على سبيل الافتراض الذي ينتظر الإثبات على أساس ما قد يتكشف لنا من حقائق ، ولذلك فهو يتميز أول ما يتميز بقابلية الصواب والخطأ وفق ما تقدمه المشاهد لنا بعدئذ من شواهد).

إن أهم ما يميز فلسفة بيرس كونها فلسفة علمية تجريبية غير تأملية لاعتمادها على الوقائع التجريبية ، وان الحقيقة ليست ثابتة وربما يكتشف لاحقا خطأ ما وصل إليه فيلسوف معين فالنتائج نسبية وليست مطلقة ٠

لقد ربط بيرس بين الكيفية التي يثبت اعتقاد الأفراد بفكر معين وبين العلمية القائمة على التجربة والفشل حتى يترسخ الاعتقاد أو ما اسماه تثبيت الاعتقاد الذي يتحصل عنده من خلال ثلاث مناهج :-

الأول – منهج التشبث : ما دام الاعتقاد هو هدف التفكير النهائي فان الشئ الوحيد الذي يثبت هذا الاعتقاد هو التحدي للتشبث به ، فليس من المعقول أن يؤمن الناس جميعا بذات الاعتقاد ، مما قد يثير الشك فيه (الاعتقاد) والتردد الى أن يتم القضاء على ذلك الاعتقاد وهذا يثير ضرورة الوصول الى منهج أكثر فاعلية في تثبيت الاعتقاد منهج لا يقتصر على الأفراد بل يتعداهم الى المجتمع وهو

ثانيا – منهج السلطة : يقول بيرس (دع الدولة تفعل فعلها بدلا من إرادة الأفراد ودع هيئة أو مؤسسة تنشئ لهذا الغرض ، إن تضع أمام الجماهير الاعتقاد الصحيح وان تعلمه للأفراد منذ الصغر وان تكون لديها القوة كي تردع الاعتقادات المناهضة والخاطئة وتمنعها من الوصول اليهم فالسلطة هي الطريق الوحيد لحكم الجنس البشري ٠

ثالثا – منهج العلم : يقول بيرس (إن المنهج العلمي لتثبيت الاعتقاد لا يتوجه الى الجماهير الواسعة بل الى الأقلية المثقفة الى الصفوة التي لا يشبعها المنهجين السابقين) ومنهج العلم عنده يقوم على أساس البراغماتية .

نستطيع أن نستنتج مما كتبه بيرس بان براغماتيته قائمة على الآتي :-

١- أن تثبيت أي فكرة لا بد أن يقوم على أساس التجربة والخطأ الى أن يتم التثبت من صحتها أو خطأها ٠

٢- إن عناصر صحة الفكرة أو خطأها نابع من النتائج التي تفرزها٠

٣- ضرورة قيام الدولة برعاية اعتقاد الأفراد ما دام يصب في تطورها وله نتائج ايجابية

٤- إن السلطة هي سلطة النخبة المثقفة القادرة على استيعاب اعتقادات الجماهير والتوفيق فيما بينها مما يسهم تطوير المجتمع .

٥- ضرورة أن تكون السلطة قوية للدفاع عن حرية الأفراد .

٢- وليم جيمس ١٨٤٢-١٩١٠

سبق وان ذكرنا بان الفكر البراغماتي الذي ابتدعه تشارلس بيرس ظل زهاء العشرين عاما بعد وفاته مغمورا الى ان جاء وليم جيمس وبعث الروح فيه من جديد ، وهذه السنوات العشرين شهدت التطور السريع في الاسس الاقتصادية والسياسية التي يقوم عليها النظام الامريكي ، إذ تحول الاقتصاد من مرحلة المنافسة الحرة الى مرحلة التركز في مجموعة احتكارية وقامت السلطة الحاكمة بالتدخل لظهور امريكا الجديدة .

ولد وليم جيمس في عام ١٨٤٢ بمدينة نيويورك وله خمسة اخوة كان اكبرهم وكانت اسرته متدينة وثرية مما مكن جيمس من السفر والتجول حول العالم ، درس الطب في جامعة هارفارد ، كان واسع المعارف في ميادين علم النفس والفنون ، وكانت اول نتاجاته العلمية كتابه (اصول علم النفس) ثم توجه نحو التفكير الفلسفي الصرف فاخرج كتابه (ارادة الاعتقاد) ثم القى العديد من المحاضرات في الجامعات الأمريكية فظهرت تلك المحاضرات على شكل كتاب باسم (البراغماتية) عام ١٩٠٦.

ان الفكرة الرئيسية في فلسفة وليم جيمس هي نفس الفكرة عند أنصار الفلسفة البراغماتية وهي الفكرة الخاصة بتحديد مفهوم (المعنى) وهو ان ما يجعل للعبارة معنى كونها ذات نتائج علمية تترتب على تنفيذها ، اما اذا كانت امامك عبارة لا تدري كيف تحولها الى تجربة محسوسة لديك كانت تلك العبارة بلا معنى ، ومن زعم ان لها معنى فانه مخدوع.

لقد اسس جيمس نظريات من نظرته الى الفلسفة البراغماتية هي :-

أ- نظرية المعنى .

ب-نظرية الحق أو الصدق.

ج- نظرية التجريبية .

د- نظريته في الدين .

٣- جون ديوي (١٨٥٩-١٩٢٥)

ولد جون ديوي في اسرة زراعية ريفية في ولاية باقصى الشمال الشرقي من الولايات المتحدة درس فلسفة هيجل وتاثر بها ، وعند سفره الى شيكاغو تغيرت طريقة تفكيره ، فقد راى المثقفين لا يدرسون النظريات المثالية البعيدة عن ارض الواقع كما كان يفعل هو ، بل وجد اناس يؤمنون بالعمل اليدوي وبالسعي الدؤوب الذي لا يفتر لحظة عن الانتاج والخلق ، فاثر هذا في تفكيره وجعله يؤمن بان مقياس الصواب هو النتائج ، فما كانت نتيجته نجاحا في حل المشكلات العملية فهو صواب وان كل شئ في الحياة قابل للتغيير اذا دعت الضرورة الى ذلك التغيير ، بل لا بد من تغيير قواعد الاخلاق ذاتها اذا اقتضى الاصلاح هذا التغيير وكذلك لا بد من تغيير اسس السياسة والاقتصاد والتربية وكل شئ مما قد يظن به الدوام والثبات في سبيل تغيير الحياة تغييرا يجعلها أكثر ملائمة لظروف العصر الجديد .

انفرد جون ديوي دون سائر البراغماتيين بما يسميه المذهب الوسائلي أو المذهب الذرائعي ومفاده (ليس هناك حقيقة قائمة بذاتها ابدا بل ان كل حقيقة انما هي خطوة في طريق متسلسل طويل يؤدي في النهاية الى حل لمشكلة معينة وهذا الحل الأخير نفسه يستحيل ان يكون حقيقة قائمة بذاتها بل أن سرعان ما يصبح حلقة في سلسلة فكرية جديدة يراد بها حل أشكال آخر جديد .والفكر عند ديوي يلخص بنتائجه فيقول (الفكر لا يكون فكرا إلا إذا كانت له علاقة بما ليس فكرا ، كالسكين تقطع غيرها ، والمنشار يشق ما ليس منشارا)

وخلاصة القول بان الرموز الثلاثة للفكر البراغماتي وان اتفقوا على اصولها وعلى ان ما يجعل أي فكرة أو معتقد ذات معنى هو كونها ذات نتائج علمية ملموسة تترتب على تنفيذها ، الا ان كل واحد منهم اختط لنفسه مسارا خاصا ولونا مغايرا لما عليه صاحبه :

فان تشارلس بيرس نظر الى الفكر في البراغماتية باعتبار المعنى فاهتم بالتفكير المنطقي وطرائقه في ايضاح المدركات العقلية ، فالفكرة صادقة لديه لأنها ذات نتائج عملية مفيدة ،أما وليم جيمس فمع موافقته لبيرس الا انه اضفى على معنى البراغماتية الطابع النفعي فتعامل مع صدقية الافكار من منطلق القيمة الفورية العملية ومقارنة النتائج العملية الناتجة عن نظرية ما فاهتم بصدق الكلام متى يكون وكيف يكون فالعبارة لديه صادقة اذا تصرفت على اساسها فلم تجد ما يعترض طريقك الذي يوصلك الى غايتك لذا كان يضرب المثل على ورقة النقد فيقول (انها تظل صالحة للتعامل الى ان يعترضها معترض ويثبت زيفها وبطلانها ، وتستمر مصداقيتها ما دامت تعمل فنحقق بها ما نريد من اغراض) ، أما جون ديوي فقد ادخل الوسيلة أو الاداة في مفهوم البراغماتية ، إذ جعل المعرفة اداة العمل ووسيلة التجربة ، واخذ بالمذهب السلوكي الذي

يقول (ان العقل ما هو الا ما يفعله الجسم) وان كل شئ يتغير ولا يوجد ثبات أو سكون في ميدان المادة ولا في ميدان العقل ٠

ثالثا – أسس وقواعد الفكر البراغماتي :-

١- التجريبية العلمية :

تعد الفلسفة البراغماتية تطويرا للاتجاه التجريبي العملي ، ودفعا به الى نتائجه المتحققة ، فهي تذهب الى التجربة وتنبذ الجمود والتأمل أو الحكم على الاشياء دون سابق تجربة لها ، لان التجربة لأية فكرة هي المعيار الذي من خلاله يتم الحكم على تلك الفكرة بالصدق أو الكذب وهي تتفق مع الفلسفة الوضعية التي تنكر وجود حقائق أو قيم لم تستخدم التجربة وانتهى بها المطاف الى التضحية بالقيم ما لم تكن ذات منفعة ومجربة .

٢- تتبع النتائج العملية :

وتعني ان الفكرة لا بد ان تكون قابلة للتنفيذ ولها نتائج عملية مؤثرة في السلوك وبدون هذه فهي فكرة لا وجود لها.

٣- القطيعة مع الماضي :

ينطلق الفكر البراغماتي الى المستقبل متجاهلا الماضي ، وجاعلا من الحاضر لحظة اعداد لتحقيق برنامج لصنع المستقبل .

٤- الوعي الواقعي :

ينبغي على البراغماتي ان يكون ذا وعي شديد وتنبه دقيق عند مناقشة الافكار وتجربتها ، فهو لا يهتم بالأفكار المجردة والمناقشات التي لا تمس الواقع ولا تدعو الى تغييره ، وإنما ينظر الى الافكار والنظريات من خلال قدرتها على تغيير اسلوب الحياة وصنع المستقبل .

رابعا : نقد الفكر البراغماتي :

على الرغم من كون البراغماتية فلسفة قدمت للعالم اسسا لحفز الامل وتحدي العجز والنظر الى المستقبل ، وبعث الشجاعة في نفوس الناس لإخضاع افكارهم الى التجربة وتتبع النتائج العملية الناتجة عنها ، الا ان هناك العديد من الملاحظات النقدية الهامة التي لها علاقة بالتناقضات التي وقعت بها الفلسفة منها الاتي :_

أ- ان البراغماتية وان نادت بالقطيعة مع الماضي ، الا ان مفكريها في انطلاقتهم الفكرية يعودون الى كبار الفلاسفة القدامى ولعل اهمها فلسفة ابيقور (٣٤١-٢٧٠ق.م) وتلامذته في الابتعاد عن القول التقليدي بالصدق المطلق أو الحقيقة المطلقة ، ذلك ان الحقيقة الفلسفية بالنسبة لهم هي تلك التي تحقق وظيفة عملية لإصلاح حال المعتقد بها ، كما ان القديس اوغسطين قد

ساهم بنصيبه في الملاحظة والتجربة التي هي أساس المذهب البراغماتي وان لم يكن احد منهم براغماتيا وهذا ما يثبت زيف الادعاء بالجدة والحداثة .

ب- ان جعل المنفعة معيارا للصدق والحقيقة يجعل المجتمع غابة من الوحوش الضارية التي يأكل بعضها بعضا لتحقيق التفوق والغلبة والنجاح بصرف النظر عن الهدف ، فضلا عن جعل المنفعة معيار للصدق يجعل إرادة الانسان لا تتفق على تحقيق القيم الفاضلة كالحق والعدل والايثار ، الأمر الذي جعل من الفلسفة البراغماتية ملهمة للنظام الرأسمالي القائم على مبدأ المنافسة الحرة التي استفحلت اخطارها عند التطبيق في عدد من الجوانب اهمها :-

أولا – اللاأخلاقية : وهي تفيد الرأسمالي في تعامله مع الغير فالحق لذاته والباطل لذاته بصرف النظر عما يترتب عليهما من وجوه النفع والضرر .

ثانيا – الارتباط الوثيق بالحرب عندما تكون نتائجها لصالحهم بغض النظر عن الممارسات اللاإنسانية والاذى والضرر الذي يقع جراء الحرب.

ثالثا- الانحرافات السلوكية كسلوك الاجرام والقتل وغسيل الاموال وتجارة المخدرات وفتح الباب للمنافسات والصراعات .